الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفرى

— ٢ —

لوح صديقى بكتاب كان فى يده قائلا هناك فى مدينة النور (باريس) تجد واقعية الحياه ومتعة الوجود . والسعادة التى تنشدها جوانب النفس . فالمرأة مثلا وهى جانب حى من الجوانب الإنسانية ومخلوق ناعم شهى تبصره فى زروق الأحلام وعلى متن نهر الحب الخالد فى حرية وانطلاق . إنطلاق كامل فى كل ما تملية الرغبات . فى الحب والعشق والجنس والعطور والموديلات . إنها زهرة فواحة تهب رحيقها لكل من يقع عليها .

تستطيع ياصديقى أن تقرأ كتاب الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان (هل تحبين برامز) فى هذا اللون من الحياة تجد الصدق والواقعية .

أما حياتنا نحن الشرقيين بالنسبة لهذا المخلوق الشهى فالمرأة ليست إلا متاعا صامتا ملفوفاً فى قماش مزركش ينقل من بيت أسرتها إلى بيت زوجها ، ولا نصيب لها من الإنطلاق والتعبير عن وجودها الأنثوى . مع أن للمرأة دوراً كبيراً خطيراً فى المدنية والحضارة قديمها وحديثها .

أما فى الإسلام وفى بلاده فلا نكاد نرى إلا حجابا ورقا وكبتا لعواطفها . واهداراً لحقوقها الطبيعية من الزينة والإنطلاق وممارسة الوجود كما تمليه غريزتها .

قلت نعم يا صديقى . القرآن الكريم كتاب الإسلام العام الخالد لم يكن ليغفل المرأة والتنظيم لوجودها الغريزى والأسرى والوطنى وخطتها الوجودية .

وقد كانت المرأة إبان ظهور الإسلام متاعا يورث ولذائذ تتعدد إلى مالانهاية للرجل ، ولا حق لها فى وجودها . إلا بقدر ما يسمح به من عائلها ، ومن حقه عندما

يرى إبادتها أن يأدها خشية العار . بل إن بعض الآراء المتحدرة من اليونانية كانت تنكر عليها وجودها الآدمى ويعتبرها مخلوقا بدون روح والبعض الآخر من الاتجاهات يقول إنها نجس ورجس وبجانب هذا وغيره كانت تعبد فى أطراف أخرى من الأرض باعتبارها ولدت الإنسان ، وهذا عمه وضلال وتخبط تاه فيه أولوا الرأى السذج والمستوى المحنج .

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . بهذا النداء العام لبنى البشر المسلم وغير المسلم يعلن القرآن أن حواء شطر آدم لها حق الوجود الحر الكريم مثل آدم فهى ليست برجس ولا نجس ، وليست بمعبودة لسبب ولادتها لبنى البشر .

يا أيها الناس جميعا فى شتى البقاع والأصقاع والأزمان والأوطان اتقوا ربكم وصلوا أنفسكم بتعاليمه وإرشاداته لتخرجوا من الضلالة والتيه إلى الحق والصراط المستقيم .

الذى خلقكم من نفس واحدة . كلكم لآدم وآدم من تراب . الناس سواسية كأسنان المشط . لا لون ولا جنس ولا تقدم ولا تأخر . التكوين البيولوجى واحد . وإن تفاوتت الحالة السيكولوجية أو الاجتماعية للأفراد والجماعات فليس ذلك بخارجها عن طبيعة الخلق الواحدة . ومن هذه الصورة العامة للتكوين والجشتالت الوجودى كانت المرأة من آدم وآدم لها ولا يكمل الذكر وجوديا إلا بأنثاه ولا تنمو الأنثى ويفوح أريجها إلا بين أحضان آدمها .

ومن ذلك كان الإلتقاء سنة الحياة والجنس طريق النمو البشرى والازدهار العمرانى للكون ، ولأمر ماكانت اللذة الجنسية هى الحبل السرى لإلتقاء الذكورة بالأنوثة فى غاية المتعة وعلى قمة الشهوات الدنيوية . زين للناس حب الشهوات من النساء .

وإذا كان مركز الجنس بالنسبة الإنسان فى القمة وبهذه الصورة العارمة وهى استجابة لطبيعة الوجود . فإن بدء هذا الدور العمرى (البلوغ) فى الذكر والأنثى هو مفتاح التكاليف الشرعية وباب المسئولية الدينية . ومن هنا يظهر جليا الربط بين القدرة على الإسهام فى سير الوجود البشرى والدين . فعندما يصير الإنسان صالحا لعملية النسل وبلغ دور وظيفة العمران أصبح عضوا مسئولا عن نفسه وأهله

وعشيرته وبنى جنسه وفهمه للوجود العام، أمام رب هذا الكون الذى أبدعه وأتقنه فى حكمة ولغاية .

وإذا كان الأمر كذلك فالقرآن الكريم دون ريب قد نظم سلوك هذه الاستجابة لصالح الفرد والجماعة والجنس والوجود كما هى طريقته دائما . فلا ذاتية للتوجيه ، ولا محلية للتشريع ولازمنية للهداية . بل هو رسم لهذه الاستجابة يدوم بدوام البشر .

فانكحوا ماطاب لكم من النساء ، إنه لا ينكر الجنس ولا يمنع الزينة بل يأمر بها الناس جميعا حتى فى وقت الذهاب إلى بيوت العبادة التى يدعى بعض الجهلة أن القذارة وعدم الزينة تواضع . خذوا زينتكم عند كل مسجد . فنلاحظ أن وسائل التقرب إلى الله فى الدين الإسلامى تبدأ بعملية النظافة والتنظيف فى الملبس والجسد والأطراف والضمائر كالصلاة مثلا . يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، أيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين الخ . فالأصل فى الدين النظافة والزينة . فمن حرم زينة الله التى أخرج لعباده وهى للمرأة ألزم .

ولكن زينة المرأة وهى وسيلة فعالة فى وقوع النظر والتهامه لها والتقرب والسعى إليها والتسلل من خلفها للتمتع بها . هذه الزينة التى دفعت بالمرأة إلى أن تكون مبدعة الفن وربته كما يقول دارون الذى بدأ بالقرط وهو الآن فى مرحلة الروج والكوافير هذا الضرب من الاغراء وإبداء المفاتن لا يجوز أن يكون فى متناول الناس جميعا حتى لا تتعرض المرأة لتهب الذكور وفساد الأخلاق وانحطاط السلوك كما هو الحال فى حى سان جرمان فى مدينة النور . بل هو للزوج فقط . ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن .

نعم يجب أن يباشر كل كائن وظيفته فالتقاء آدم بحواء وانغماس الذكورة فى الأنوثة ومباشرة الجنس بطريق مشروع وبإيجاب وخطبة ورغبة وقبول ورضاء وحب لكل منهما . للمرأة أن تعبر عن رأيها فى صراحة وجرءة فيمن يخطب يدها ولا هى عيب عليها إذا وكلت من ينوب عنها فى إعلان رضاها ويكفى من البنت أن تسكت إذا عرض عليها دون عنت أو إجبار أو تسلط والثيب لا يكفى منها ذلك بل تعبر هى بصراحة وصرامة .

فاختيار الزوج من حق الأنثى : كما أن اختيار الزوجة من حق الرجل تماما .

أما ما يقوم عليه عرف بعض الدول الاسلامية فى اختيار الأب أو من ينوب عنه للزوج فهو عرف بنى على تقاليد ومعان ليست اسلامية وللمرأة بعد قبولها

وإعلان رضاها حق المهر فى مقابل البضع وتمكين الرجل من نفسها . وليس ذلك بيعا ولا تحكما . بل إشارة إلى بذل الرجل وتنازله عن بعض وجوده الممثل فى بذله وتلميح إلى التفانى فى سبيل هذه الوصلة فالرجل الذى يقدر على قنطار من الذهب لا يستحق على بذله ذلك إلا التقدير والحب أما من قدر عليه رزقه كالرجل الذى ذهب إلى رسول الله عليه السلام طالبا الزواج ولا شىء معه . قال له : إلتمس ولو خاتما من حديد .

فالمهر ليس بمحدود . بل هو واجب للإشعار المشار إليه وأذكر أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما جدت مشكلة المهور قام فى الناس خطيبا يريد تحديده قامت امرأة من المسلمات تعلن أن هذا الاتجاه ليس مرادا إسلاميا . قائلة وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا . الخ . لم يسع هذا الفاروق إلا أن يعلن على ملأ المسلمين أن أصابت امرأة وأخطأ عمر .

ما أعظم هذا الخليفة الحر الذى يؤمن بأن الحرية حق مقدس لكل إنسان ؟

وإذا ماتم الاختيار ووقع الرضا وشهد جماعة من المسلمين بذلك أصبحت الأنثى زوجة لها حق العيش فى كنف الرجل وحمايته ورعايته وهو مسئول عن كل ما يضمن لها الاستقرار والهناء والزينة والمتعة والحب والجنس وهذا الأخير من القداسة وفى عنق الرجل بحيث إذا أراد أن يبذل قواه فى العباده فهو ليس من حقه بل هو من حق أنثاه ، والرسول يعتب على مثل هذا السلوك لصحابى قد انصرف إلى الزهد والعبادة فيقول له : وإن لزوجك عليك حقا . بل أعجب من هذا أن مزاولة الجنس فى طريق مشروع ضرب من التقرب إلى رب الوجود كما يحكى الرسول عليه السلام . وفى بضع أحدكم صدقة .

وكما أن للمرأة هذه الحقوق فعليها واجبات . إذا كان لها الغذاء والكساء والمأوى والزينة والمباشرة . وكذلك لها ألا يتزوج عليها إلا إذا دعت ضرورة حتمية لذلك مثل أن يترتب على عدم تزوج الرجل عليها عطل وجودى واهدار لنتائج الذكورة كعقم المرأة مثلا أو عطل سير المتعة والسعادة الزوجية التى هى محراب مقدس يصلى فيه الزوجان ويرتلان آيات الود والرحمة فى سورة السكن .

فإذا عز الإتفاق وحل الشقاق فلا مانع من المفارقة والطلاق . مفارقة بالمعروف مع أنه أبغض الحلال الى الله بهذه الصورة الأمينة على الفرد والانسانية والربط بينهما وبين الغاية الكونيه والرسالة الوجودية ينظم القرآن طريق الاستجابة الطبيعية للجنس . لا انطلاقية خرقاء ولا فوضوية جهلاء ولا عنجهية عمياء .

أما ما وراء ذلك من تنظيم هذه الوصلة (الزوجية) ومركز المرأة العملى فى حقل الانتاج الفكرى والسياسى والنشاط الاجتماعى ففى الحديث القادم ان شاء الله